

رسائل الماجستير في ديداكتيك اللغة العربية بين المنهجية البحثية والجدوى التعليمية

ماغي الخوري شتوي

كلية التربية - الجامعة اللبنانية

2013

1/11/2013

1

- تهتم هذه الورقة بدراسة التوجهات البحثية الغالبة في موضوعات تعليم اللغة العربية وتعلمها في الجامعات العربية، وعلى مستوى رسائل الماجستير.
- التقويم خارجي يعتمد المنهج الوصفي التوثيقي مستندا إلى مسميات البحوث (253 عنوانا)، والوصفي التأويلي مستندا إلى ملخصات البحوث (40 عنوانا).
- تغطي المقاربة بحوث الفترة الواقعة بين 2007 و 2012، انطلاقا مما توفره، مشكورة، "شبكة المعلومات العربية التربوية". (شمعة).

1/11/2013

2

1 - أهداف الدراسة وإطارها البحثي .

- قد يكون من دواعي الخير والاستبشار بمستقبل واعد أن نشهد ازدهار الرسائل البحثية في ديداكتيك العربية، غير أنه بين قراءة المراجع والتقارير، والتزود بمنهجية البحث العلمي، قد يتصور الطلاب الباحثون أن مشاريعهم البحثية ستبصر النور، صباح يوم زاهر، تحفّ بها الأسئلة البحثية الملأمة، وتحدها الفرضيات الصائبة، لينتسب البحث بعدها أبهى حلة، فتخرج الرسالة البحثية إلى النور، معلنة ولادة باحث !
- إن التصورات التي يكوّنها الطلاب الباحثون حول البحث وآلياته قد تكون من المعوقات التي تحول بينهم وبين إقامة مشروعاتهم البحثية وإثبات شرعيته. (FLEURY.R. 1994)
- أما رهان الإعداد البحثي ف قائم على مقولة أساسية : قدرة كل من يمتلك رغبة في التقصي العلمي، وتأمين له شروط الإعداد البحثي، على إنتاج معرفة ما، من خلال تحقيق مسار بحثي متعارف عليه، ثم التعبير عن هذه القدرة، من خلال الكتابة البحثية.

1/11/2013

3

2- خصوصية البحث الديداكتيكي .

- اتّسمت البحوث التربوية بكونها بحثاً على التربية، لا بحثاً للتربية، فهي وصفية، تفسيرية لا تلبي الاهتمامات العملية، مما جعل منظمة التعاون والتطوير الاقتصاديين OCDE تضع موضع الشك، (تقرير 2000)، هذه التوجهات البحثية ونوعيتها وجدواها الاجتماعية والاقتصادية . (KARSENTI.TH. 2011)
- تسعى المقاربات البحثية حالياً إلى خلق ديناميات بحث جديدة تستهدف تحسين الممارسات. وتحلّ ديداكتيك المواد موقعا مميّزا في هذه المنظومة، فهي مكان التقاء المعرفة بالممارسة، وتلتزم أبحاثها بالاتساق المفهومي إذ تتعاطى مع مختلف مكونات العمل التربوي بهدف إنجاح المهام.

1/11/2013

4

- غير أن خصوصية الديداكتيك تطرح على مستوى الإعداد البحثي إشكالية؛ فإذا كان من الطبيعي أن لا ينفصل البحث الديداكتيكي عن جدواه، فإنّ البحوث تهدف على مستوى الماجستير إلى تطوير ذات الباحث قبل المجال، وتبقى قيمة النتائج البحثية مرتبطة بموقف الطالب البحثي أكثر من ارتباطها بإعلان نتائج مفيدة .
- ونسأل : هل المطلوب في بحوث الديداكتيك تدجين العمل البحثي بهدف خدمة الممارسات ؟ وهل يجعلنا هذا التدجين نضحي بالمسار البحثي لتحقيق الجدوى والمردودية ؟ وإذا جازت هذه التوضيح على مستوى البحث الديداكتيكي عامة، فهل هي جائزة على مستوى الإعداد على البحث، من خلال القيام بالبحث ؟
- نفترض أن تبعية البحوث لجدواها أمر مشروع في البحث اليومي، غير أنها تفقد مشروعيتها في البحث العلمي، والا تحوّل البحث إلى نشاط جانبي يشابه أي نشاط إنساني يستهدف إنجاز المهام، مع التنبّه إلى أولوية موضوع الجدوى والمردودية لدى الباحث الخبير، وأولوية المسار البحثي لدى الباحث المبتدئ .

1/11/2013

5

3- حدود الدراسة : الملخصات، مستلزمات ومعوّقات.

- يعتبر الرجوع إلى ملخصات البحوث مطلباً أساسياً للباحثين يسمح لهم بالتواصل سريعاً مع من سبقهم في المجال.
- انطلقنا في تحليلنا للملخصات من اعتبارها نصّاً علمياً يتمتّع بالصدق (DE KETELE.J.M. 2010) ويتغذى من الأعمال البحثية التي تمّ الإشهاد عليها، ومن كونها كتابة متفكّرة تفيد بتموضع الباحث إزاء عمله بعد انتهائه.
- يعرّض هذا التموضع الملخص كنص الى إشكالية؛ فهل على الملخص أن يفيد بالحركة الذهنية التي سطرّ مسار الباحث وساهمت الكتابة في بلورتها واستقرارها، أم على الملخص أن يكتفي بإعلان ما وصلت إليه هذه الأخيرة من نتائج ؟ (REUTER.Y. 2004)
- سيفيدنا تتبّع الملخص بالمعنى الأول في تبيان ملامح الباحثين وخطة عملهم، و بالمعنى الثاني في تبيان جدوى الأبحاث.

1/11/2013

6

- تجعل ضرورات الاختصار من الملخص عملاً ذهنياً ملزماً كتابة، ونبقى عاجزين عن التأكد، أمام الفجوات التي نلاحظها في الملخصات، إن كانت إشكالية الكتابة ناتجة عن عمل ذهني غير متماسك، أو بالعكس، عن عمل ذهني أشبع بالمفاهيم، بعد انتهاء البحث، لدرجة أن تنهافت هذه الأخيرة في التعبير عن ذاتها، أو ناتجة عن خلل في امتلاك مكونات الكتابة بما يعيق في الإفادة عما يخنفي وراء العمل البحثي !
- كما نتساءل عن الأهمية التي يعيها الطلاب الباحثون للملخص في الإفادة عن أعمالهم، وعن طريقة قارئ الملخص في تحليل المعطيات، فالخطورة أن تخرج المدونة عن الحيز المعلن فيها بسبب إسقاطات القارئ، فيستبد هذا الأخير بالنص مخضعاً إيّاه لعشوائية التأويل (RICOEUR.P.1990)
- يبقى الضامن الثقافة المشتركة بين كاتب الملخص وقارئه بحكم الانتماء إلى المجال، وقدرة القارئ على تفعيل التفكير النقدي بما يضمن صحة التأويل .

1/11/2013

7

4 - المدونة : معطيات وتوجهات.

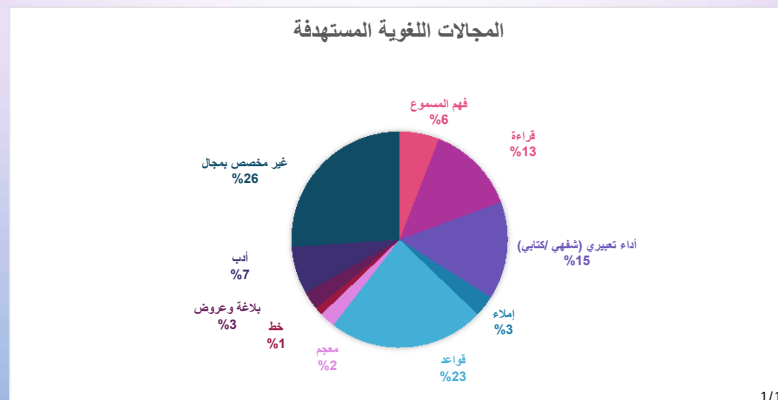
- تكمن قيمة أي نص علمي في مجموعة مكونات ليس أقلها أهمية الموضوع المعالج، وطريقة معالجته، وحسن اختيار مصادر المعلومات، وتتخلل الوسائل البحثية، كما تكمن في القدرة على تنظيم المعالجة، واتساق أجزاء العمل وتسلسلها المنطقي، وتكمن أخيراً في جدوى النتائج، (KARSENTI.TH.2011) وفي قدرة الباحث على تنظيم نصّه واستثمار لغة العرض.
- انطلاقاً من هذه المكونات، وانطلاقاً من أن الطالب يبحث في ما تعلم أن يبحث عنه (SENSEVY.G.2011)، كيف تبدو بحوث ديداكتيك العربية في رسائل الماجستير ؟
- نلاحظ أولاً في العناوين، وعلى مستوى المراحل التعليمية، أن الابتدائي يستأثر بالنسبة الأعلى (35 %) من الرسائل، وهذا متوقع، فالمرحلة تأسيسية في تعليم اللغة وتعلمها.

1/11/2013

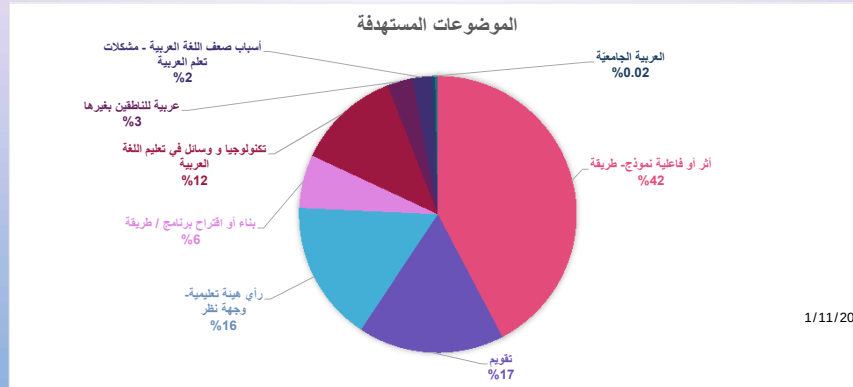
8



- ونلاحظ على مستوى المجالات اللغوية، أن تعليم القواعد يستأثر بنسبة 23 % منها، وتراجع تعلمية التعبير الى 15%، والقراءة الى 13 %، وفهم المسموع الى 6 %، في حين يفترض أن يتجه منطق التعلم صعداً، من فهم المسموع، إلى المقروء، إلى التعبير الشفهي والكتابي، ثم أخيراً إلى القواعد ! ويشير ارتفاع نسبة الاهتمام بتعلمية القواعد إلى ترجيح بحوث الديدانتيك لكفة الوظيفة ما فوق اللغوية في تعليم اللغة .



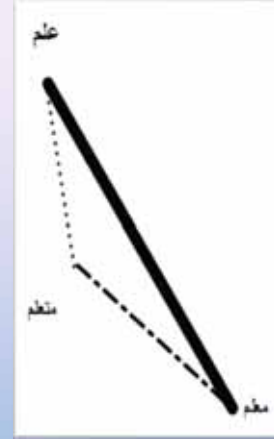
- ونلاحظ، في العناوين، وإزاء تغليب المرحلة الابتدائية، أنها لا تشير الى الاهتمام بالموضوعات ذات الأولوية التعليمية في الابتدائي بما تقتضيه من عمل على أنشطة المتعلم الذهنية وأنماط التعلم واستراتيجياته وغير ذلك من محاور تقتضي على الديداكتيك أن تتقاطع مع علوم تربوية أخرى، إذ نلاحظ غياب معطيات هذه العلوم لصالح التحقق من طرائق التعليم وأثرها، وبناء جداول الكفايات.
- أما احتكاك العربية باللغات الأجنبية في عصر العولمة والانفتاح اللغوي، وأثر هذا الاحتكاك على تعلم العربية فلا يحظيان سوى بنسبة ضئيلة جداً من الاهتمام (عربية للناطقين بغيرها 3% ، أثر الأجنبية على تعلم العربية 0.02 %) ،



- تلك هي خريطة المجال كما ترسمها عناوين بحوث الديداكتيك. فماذا تعني هذه النسب على ضوء الشكل الذي يرسم خصوصية العمل الديداكتيكي، ونعني به المثلث التعليمي؟ وكيف يظهر هذا المثلث انطلاقاً من البحوث المعاصرة؟

المثلث التعليمي كما يظهر في بحوث ديداكتيك اللغة العربيّة.

إن التفاوت الحاصل في النظرة الى أولوية الموضوعات وشكل معالجتها يجعل المثلث التعليمي يضيق بحمله في اتجاه واحد، فتمركز عناصر البحث الديداكتيكي وتتدافع لتستقر على محور علم / معلم، فتطغى موضوعات الطرائق والوصفات التعليمية، والوسائل، ووجهات النظر والمنهج والكتاب، على تلك التي تعالج الوضعيات التعليمية وسياقات التعليم وطبيعة العلاقة بين معلم / متعلم، وعلى الموضوعات التعليمية التي تعالج العلاقة المتفردة التي يقيمها المتعلم مع العلم. تحدّد خارطة عمل الطلاب الباحثين مثلثاً تعليمياً يختلّ توازنه بما يهدّد بانفجاره . (Astolfi, J.P. 1993). ولا يشي هذا الخلل بالتوجّه البحثي وطبيعة عمل الطلاب الباحثين فحسب، بل يهدّد البحث الديداكتيكي بالإجمال، ويوحى بعدم اتّساق الإعداد الديداكتيكي في الجامعات العربية في التعاطي مع الجهاز المفهومي للديداكتيك القائم على مبدأ تقاطع الاختصاصات وما يقتضيه من توازن في العمل على محاور المثلث.



1/11/2013

13

• كما يجعلنا هذا التهافت البحثي على المحور الواحد نرجّح فرضية صفرية الانطلاق، وغياب الذاكرة العلمية الجماعية (علي، محمد. 2004) ، وعدم الالتفات الى مبدأ بحثي هام هو مبدأ التراكم المعرفي، والبناء انطلاقاً من الاستفادة من خبرات الآخرين.

• أمّا داخل الجامعة الواحدة فنلاحظ تكراراً وعدوى موضوعات، وميلاً الى تسويق بروتوكول أو موضوعة في اختيارها، ، فيعالج الطلاب في سنة موضوع الطرائق، وفي أخرى موضوع المناهج، وفي ثالثة موضوع الوسائل التكنولوجية، وهكذا، بغضّ النظر عن الحاجات المتبدية... ولا يخفى هنا الدور الهام الذي يضطلع به الأساتذة المشرفون في تسديد خيارات الطلاب .

• قد يبرّر التكرار بكون القضايا التعليمية مشتركة، فنتوقّع إزاء التشارك في الهمّ التعليمي لجوء البحوث إلى عقد المقارنات، واللافت غياب الدراسات المقارنة، وفي هذا الغياب مؤشّر ينبئ بالانكماش البحثي، فبدل عقد المقارنات نرى مجتمع الدراسة يضيق لينحصر في منطقة الباحث، دون أن تكون لهذه المنطقة خصوصية بحثية أو تعليمية، فالخصوصية سهولة مناطقية مريحة في البحث .

1/11/2013

14

5- ملامح الطلاب البحثية وخطة عملهم.

- يسترجع الطالب في عمله البحثي ما تعلمه من خطاب منهجي، فالهدف من رسالته أن يثبت أنه قادر على القيام ببحث، والخطاب العلمي، والهدف أن يفيد بامتلاك مضمون معرفي، كما يسترجع خطاب العرض، ليثبت أنه قادر على الإفادة، كتابة، بالتجربتين البحثية والمعرفية. (FLEURY.R.2011) . من هنا نفترض أن يمتلك الطالب الباحث المفاهيم البحثية الأساسية، كما يفترض أن يتنبه لضرورة إعلان محدودية نتائجه، ولضرورة فتح الآفاق البحثية. تشكل هذه المستلزمات ما يعرف بالمسار البحثي.
- فكيف تتبدى لنا، في الملخصات، عناصر هذا المسار، وقد درّب الطلاب الباحثون، بالمبدأ، على امتلاكها ؟

1/11/2013

15

5-1 الإطار المعرفي والشكل البحثي .

- ليس من الملزم ولا المناسب أن يفرض على الطالب إعلان إطاره المعرفي في بدايات عمله البحثي، إذ قد لا يكون هذا الإطار واضحاً للباحث، أو يكون واضحاً، غير أن إعلانه يلزم الباحث ويقيّد خطة عمله. يصبح إعلان الإطار ضرورة متى انتهى البحث، كما في الملخص، لتسهيل عمل القارئ.
- لكننا لا نلتزم لهذا الإطار أثراً في الملخصات، بل يكفي بعض الباحثين بإعلان منهج البحث فحسب (30 % من الرسائل يعلن منهجا يتراوح بين الوصفي وشبه التجريبي).
- أما الشكل البحثي فيتراوح بين التحقق التنبئي NOMOTHETIQUE (62,5 % أثار طريقة أو نموذج أو وسيلة) والتقصي الاستكشافي HERMENEUTIQUE (30 % تقويم واستطلاع رأي...) ثم الذرائعي التغييري PRAGMATIQUE (7,5 % تطوير تعلم ، اقتراح برنامج...)، ونلاحظ غياباً شبه كامل للبحوث التشاركية COLLABORATIVE وللبحوث المتورطة PARTICIPATIVE، كدراسة الحالة والبحوث الإجرائية. (VAN DER MAREN.2010)

5-2 الإشكالية، الأسئلة البحثية، الفرضية.

- يظهر منطق عرض البحث خارجياً شكلياً يفيد بمراحل تنفيذ العمل البحثي وبنتيجه، لا بالحركة البحثية التي سطّرت مساربها،

1/11/2013

16

- فلا تظهر في الملخصات إشكاليات الباحثين وأسئلتهم البحثية وفرضياتهم، و لا يعلنون عن انطلاقهم من مشكلة بحثية أو من قلق بحثي، ولا تبدو لهم العناصر المكونة لوضعيات البحث مأزومة، أو تتداعى لتشكّل مشكلة تطرح حولها الفرضيات.

5 - 3 منهجية البحث ووسائلها.

- يأخذ تدخّل الباحثين في ميدان بحثهم طابع الإسقاط، وتستند مقارباتهم الى متغيرات منعزلة عن سياقاتها، ترتبط ببعضها بعلاقات حتمية كعلاقة النتيجة بالسبب، وبين المنهجيتين، الكمية والكيفية، يلتزم الباحثون مقولة الحتمية.
- ويحاول الباحثون إثبات مقولاتهم، واللافت ضيق العينة وعدم تكرار التجربة، فإن كان الطلاب قد تعلموا أنّ تضيق العينة ضرورة منهجية لضبط تقلّات المتغيرات، فنحن نشتم على هذا المستوى خللاً في المنهجية البحثية لا يعوّضه حرص الباحث على ضبط المتغيرات، وهو صدقية النتائج وصلاحيّة تعميمها في بحوث تعاني من ضيق العينة، وعدم تكرار التجربة، ولا حجة لها على برهنة جدوى نتائجها سوى من خلال إطلاعنا على عكس هذه النتائج : تحسّن في نواتج المجموعة التجريبية إزاء ثبات نواتج المجموعة الشاهدة (LORRAINE.S.2011) !
- وإن كنا قد اشرنا إلى عدوى الموضوعات أو ليس بإمكاننا أن نشير هنا الى عدوى المنهجية البحثية إذ يستنسخ الطلاب خطتهم البحثية ويأتي البرهان منقصا والنتائج حتمية وكأنّها محدّدة سلفاً ؟

1/11/2013

17

- أما على مستوى المقاربة الديدانكتيكية الصرفة، فتحدّث عن خلل يسم عمل الطلاب وهو ميلهم إلى تمجيد الطريقة وإغفالهم للمساوئ التي أفضى إليها هذا التمجيد في مسار الديدانكتيك، وعن خلل آخر هو إغفالهم للصفة التركيبية المعقّدة التي تطبع الحدث التعلّمي، لذا تبدو سياقات بحوثهم معقّمة، وتجاربهم منمّطة، ويبقى الفاعلون الحقيقيون مغيبين .
- ولا يقتصر هذا الخلل المنهجي على البحوث المكّمة، بل نلاحظه في البحوث التفسيرية حيث تبقى العينة محدودة، وحيث لا يعتمد الباحثون الى التثليث (DE KETEL.J.M.2010) (TRIANGULATION) لتطوير فهمهم لأجوبة من استطلعوا آراءهم بما يساعدهم في تثبيت النتائج .
- وانطلاقاً من محدودية المجموعات المساءلة، ومحدودية التجربة، ومحدودية وسائل القياس، نفترض محدودية في قدرة البحوث على تعميم نتائجها، ونفترض بدل التعميم إمكانية " نقل المقولات " TRANSFERABILITE، "، للإفادة من النتائج في سياقات مشابهة (TOUSSIGNANT.M.1989).
- تبقى الصفة الافتراضية الملزمة في إعلان النتائج، وضرورة إعلانها مؤقتة، مرهونة بسياقات التجريب ووسائله، قابلة للنقض، ولا تلتزم طابع الحتمية. نفقد هنا أيضاً تواضع الطلاب الباحثين العلمي والتزامهم بمبدأ الاتّساق الداخلي للبحوث (CRAHAY.M.2002) إذ لا يشارون في ملخصاتهم إلى الصفة الافتراضية لنتائجهم، ولا يشكّون بالصلاحيّة المطلقة لها، ولا بقابليتها للمناقشة أو النقض .

1/11/2013

18

6- جدوى رسائل الديداكتيك البحثية .

6-1 هل تساهم هذه الرسائل في تطوير الباحثين ؟

تعتبر آلية الرسالة البحثية تطويرية بحد ذاتها، على مستوى إنتاج الرسالة، وعلى مستوى النواجد في وضعية بحثية، مما يساهم في بناء الذات البحثية (BOURDONCLE.R.1994) . فالرسالة رهان عمل، ورهان تفكير، وقدرة للباحث على تعديل تصوراتها وتطويرها واستثمارها في سياق متحرك باستمرار هو سياق البحث.

6-2 هل تساهم هذه الرسائل في تطوير ممارسات الفاعلين؟

• قد تصطدم توصيتنا بالبحوث التشاركية لتحقيق الجدوى العملية بصعوبة منهجية على المستوى البحثي، إذ يعتبر الباحث المسؤول الوحيد عن بحثه، غير أنه من المفيد أن تتوجه البحوث توجهًا تشاركيًا ليكف الباحث عن الاعتقاد بأن التعلم يقاس، ويقاس سيمًا بالأرقام، وبأن خبرة الممارسين تختصر بمحصلات التعلم فحسب، وبأن هذه المحصلات ليست سوى نتيجة طبيعية لعصرية الوسائل والطرائق ولحسن استخدامها (LESSARD.M.1997).

1/11/2013

19

• إزاء محدودية خبرة الطالب، قد يكون من الأفضل أن تتبدل المقاربة الديداكتيكية، فيكتفي الباحث بالمشاركة في التجربة، على أن يقودها الممارس مستفيدًا من مشاركة الباحث امتلاكه للمعارف، وللوسائل البحثية، وللقدرة على التحليل وعلى حفظ الهامش النقدي الموجه لعناصر التجريب (VANHULLE.S.2010) ، فتأتي الجدوى العملية من نتائج التجربة، وتأتي الجدوى العلمية من جودة تحليل الباحث وقدرته على تصويب خطة العمل .

6-3 هل تساهم هذه الرسائل في تطوير ديداكتيك المادة، وتطوير العلوم التربوية ؟

• يؤدي تطور البحث الديداكتيكي الى تطوير العلوم التربوية ، بحكم علاقة القربى بين المجالين .

• علاقة القربى هذه لا تطبعها دائماً صفة الودية، فاحتضان العلوم التربوية للديداكتيك يدعم الثقافة المشتركة بينهما، لكنه يهدد الديداكتيك المختصة بأخذها ناحية العموميّات، في حين يفقد فصل الديداكتيك عن العلوم التربوية هذه الأخيرة القدرة على التحقق من فعالية النظريات التي تأتي بها إلى الميدان التعليمي. (VANHULLE.S.2010).

• يسمح البحث الديداكتيكي، متى كان متسقًا متوازنًا، بإضفاء نظرة نقدية على علاقة المتعلم بالمعارف، مما يؤدي إلى تطوير ديداكتيك المادة، كما على علاقته بالسياقات والمفاهيم النفسية والتربوية والاجتماعية التي أنتجت المعارف، مما يساهم في إعادة تشكّل هذه المفاهيم وتطوير العلوم التربوية . بهذا المعنى تسترجع هذه الأخيرة حقّ الرعاية للديداكتيك، وتردّ الديداكتيك تحية العرفان للعلوم التربوية التي ساعدت في تكريس خصوصيتها وغذّت مقاربتها المتقاطعة.

1/11/2013

20

- أولم يحن الوقت بعد لرسائلنا البحثية أن تلتزم هذه المنظومة التأسيسية للديداكتيك؟! وهل فتوة المجال في العربية، وفتوة العمل البحثي فيه مبرران كي يمنع الطلاب الباحثون من فوائد الإعداد المتقاطع، فيكفوا عن توظيف العمل البحثي في ما يحدّ من جدوى الجهود المبذولة، وينصرفوا إلى معالجة الإشكاليات التي يعانيتها تعليم العربية وتعلّمها اليوم!؟
- رسائل الماجستير إطلاقات بحثية يافعة، يبقى شاغلنا ما يلوح خلفها من ترجيعات لإعداد بحثي جامعي تضيق بتنبّع عناصره مساحة الورقة، فهل ننتظر، بعد، حتّى " يتحوّل البحث التربوي إلى مهزلة "؟! (وهي. 1998)
- قد لا تنقص النوايا الحسنة ولا الكفايات، فالزمن زمن انفتاح وتقاطع، والخصوصيات ليست مقدّسات. وما التمسك الذي لمسناه في رسائلنا بأهداب الطرائق وجداول الكفايات العابرة للثقافات وللغات، رغم الطابع التنفيذي الضيق المتبدّي فيها، سوى دليلا على استعداد الطلاب الباحثين للإفادة من معطيات العلوم التربوية. فعسى هذا المدّ يطاول، متكافئا، مختلف جنبات الإعداد الديداكتيكي، وعسى المقاربات البحثية تفيد هي الأخرى من هذا الانفتاح.

1/11/2013

21